الحلم

ثابت بن قيس

رضي الله عنه

عندما تقترب الأحلام من الأوامر

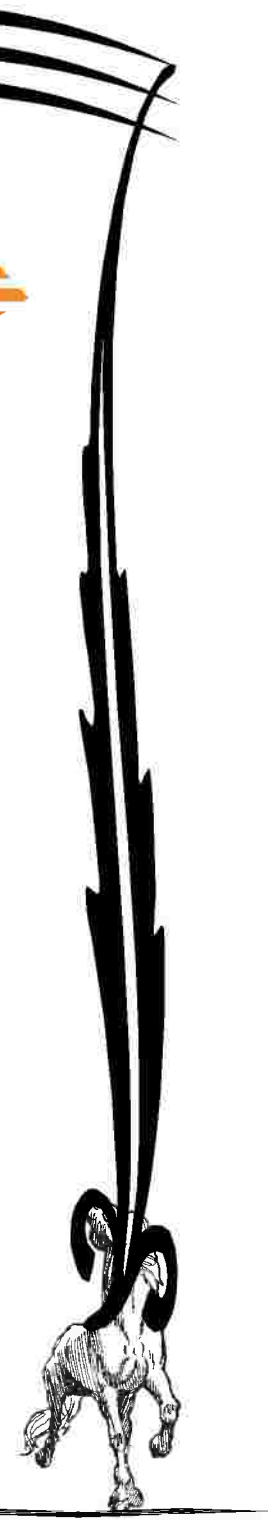

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، لم يتخل عن سياسته الدعوية من حيث انتقاء المواهب ورعايتها..

سواء كانت تلك المواهب قيادية أو عسكرية أو علمية أو فكرية أوإعلامية.

ولقد كان من بين تلك المواهب الإعلامية الفذة.. ثابت بن قيس.

عرف ثابت في المدينة بفصاحته وقدراته في البلاغة والخطابة.. حتى إنه عرف بعد إسلامه بخطيب الأنصار.

كانت الكلمات تجري على لسان ثابت بن قيس دون عناء، وكان يصل إلى هدفه بأسلوب بليغ قلما ينافسه فيه أحد.

وعندما كان ينافس كانت له الغلبة..

بعد أن قويت شوكة الإسلام في الجزيرة العربية بعد فتح مكة، جاءت الوفود من كل مكان يبسطون أيديهم ويفتحون قلوبهم لرسول الله ﷺ.

وسمي هذا العام عام الوفود.

وعندما جاء وفد بني تميم قال سيدهم لرسول الله ﷺ في مداعبة لطيفة:

- جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

فابتسم الرسول ﷺ وقال لهم:

«قد أذنت لخطيبكم فليقل»..

وقام خطيبهم (عطارد بن حاجب)، ووقف يزهو بمفاخر قومه.

ولما انتهى.. نظر الرسول ﷺ إلى الخطيب الموهوب ثابت بن قيس ليبدأ دوره في المنافسة الخطابية مع خطيب وفد بني تميم، فقام ثابت في ثقة وهو يقول:

«الحمد لله الذي في السموات والأرض خلقه قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ولم يك شيء قط إلا من فضله..ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة، واصطفى من خير خلقه رسولا.. أكرمهم نسبا، وأصدقهم حديثا، وأفضلهم حسبا فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين..

ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه.. أكرم الناس أحسابا وخيرهم فعالا..

ثم كنا نحن الأنصار أول الخلق إجابة..

فنحن أنصار الله ووزراء رسوله»..

وإلى جانب قدرات ثابت الكلامية الفريدة، فإن رقته البالغة كانت تغلبه في أحيان كثيرة..خاصة عندما يتعرض الأمر لعلاقته بالله أوالرسول ﷺ.

فلقد انزعج ثابت يوما انزعاجا شديدا، حتى إنه هرع إلى بيته وأغلق عليه بابه فلم يخرج أياما من حزنه وأسفه !

وكان السبب هو نزول الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] ..

وكان وضع ثابت كخطيب يظهر أمام جموع الناس، قد جعله حريصا على أن يلبس أفضل الملابس وأزهاها.

وعندما نزلت الآية، انزعج بشدة من أن يكون من بين المختالين الفخورين الذين عوقبوا بعدم حب الله لهم.

وعندما علم الرسول ﷺ بغياب ثابت، طلبه ليسأله، ووقف ثابت بين يديه يغلبه البكاء وهو يقول:

يا رسول الله إني أحب الثوب الجميل والنعل الجميل وقد خشيت أن أكون بهذا من المختالين!

فأجابه النبي ﷺ وهو يضحك راضيا:

«إنك لست منهم..

بل تعيش بخير..

وتموت بخير..

وتدخل الجنة».

لقد أفهمه الرسول ﷺ، أنه ليس منهم..

نعم.. ليس من المختالين المغرورين من يبكي خوفا من الغرور..

إنها سمة المتواضعين البسطاء، لا المغرورين المتكبرين.

إنها صفة محلها القلب، لا الملابس.

وقلب ثابت كان نقيا تقيا خاشعا.

وهو ما جعل الرسول ﷺ يفاجئه ببشارة الجنة.

إلا أنه ومع ذلك، عاود ثابت بن قيس نفس الإحساس ونفس القلق ونفس الخوف، حين نزلت آية أخرى من سورة الحجرات، والتي قال الله فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وللمرة الثانية يعاود ثابت البكاء ويلجأ إلى العزلة..

كان يخشى هذه المرة من صوته الجهوري أن يكون مؤذيا لرسول الله ﷺ. وأن يكون من الذين قد حبط عملهم دون أن يشعر.

إلا أن الرسول ﷺ طمأنه للمرة الثانية، وبشره بالجنة للمرة الثانية. وقال له في لطف:

«إنك لست منهم..

بل تعيش حميدا..

وتقتل شهيدا..

ويدخلك الله الجنة».

إلا أن هذه الرقة المفرطة، كانت تستحيل إلى عنف ليس له مثيل، على أعداء الله في ميدان المعركة.

وعلى عكس الموهوبين من هذا النوع، الذين يحرمون أنفسهم من التسلح بمواهب أخرى..

فلقد كان ثابت بن قيس محاربا شجاعا جسورا.. فخاض مع رسول الله كل الغزوات بعد بدر.

وعندما كان يحارب ثابت بن قيس، كان يحارب بسلاحين..

سيفه ولسانه..

فلقد كان يؤمن أن سلاح الإعلام هوالذي يوجه السيف، ويشد من أزره ويقوي من عزيمته.

ولقد وضح ذلك تماما في معركة اليمامة مع جيش مسيلمة الكذاب.

فعندما فوجئ المسلمون بقوة جيش مسيلمة، وهجومه غير المتوقع عليهم، وبدأت صفوف المسلمين تتخلخل والفزع يأخذ طريقه بين الصفوف.

هنا وقف ثابت بن قيس بين المسلمين وصاح بصوته الجهوري قائلا:

- والله ما كنا هكذا نقاتل مع رسول الله ﷺ.

وفي أسلوب إعلامي فريد، اختفى ثابت لدقائق ثم ظهر بسرعة في مشهد أذهل المسلمين وألهب حماسهم..

لقد ظهر ثابت بن قيس وهو يلبس كفنه وأخذ يصيح بكل قوته:

«اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء».

وكان يعني جيش مسيلمة.. ثم تابع:

«وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء».

وكان يعني تراخي بعض المسلمين في القتال.

وما إن انتهى من كلامه، حتى انضم له سالم مولى أبي حذيفة، حامل راية المهاجرين، وإذا بهما يبثان هما الاثنان رسالة إعلامية قوية، زادت من حماس الجنود أضعافا مضاعفة..

وكان ما رآه المسلمون منهما مذهلا بحق..

فلقد حفر الاثنان لنفسيهما حفرة في الرمال، وقفزا فيها، ثم أهالا الرمال على نصفيهما الأسفلين، بينما ظهر نصفاهما الأعليان، الصدر والجبهة وذراع تمسك بسيف بتار، يندفع يمينا ويسارا يقتل المرتدين الكاذبين.

لقد أراد ثابت وأخوه سالم أن يرسلا إلى الجنود رسالة واضحة كالشمس، فهمها الجميع دون عناء:

«سنموت دفاعا عن الإسلام ولن نعود إلى ديارنا..فماذا ستفعلون أنتم ؟ ».

ولقد وصلت الرسالة بالفعل، ودبت الحماسة في المقاتلين، وتوقت نفوسهم للشهادة، فكتب لهم النصر.

وكتب لثابت بن قيس وأخيه سالم الشهادة وهما واقفين، في مشهد نادر لبطولة نادرة في التاريخ.

إلا أن ثابت بن قيس لم تشأ له الأقدار أن يترك الحياة، دون أن يترك واقعة غريبة ومذهلة، لكل من يقرؤها أو يسمعها.

إلى يومنا هذا.

* * *

كان المسلمون في أمس الحاجة إلى الراحة بعد القتال الشرس في اليمامة.

وبينما ارتمت أجسادهم على الأرض من شدة الإرهاق، والذي دفعهم دفعا إلى أن يغطوا في نوم عميق، كان ثابت بن قيس بينهم يلقي بكلماته الأخيرة أمام أحد هؤلاء الجنود، حيث وقف أمام الرجل وقال له في حزم:

«يا أخي..إني أوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حلم فتضيعها.

إني لما استشهدت بالأمس، مر بي رجل من المسلمين، فأخذ درعي..

وإن منزله في أقصى الناس، وفرسه يستن في طوله[1] وقد كفأ[2] على الدرع برمة[3] وفوق البرمة رحل..

---

(١) **فرس يستن في طوله**: ينظف أسنانه في لجامه.

(٢) **كفأ**: غطى.

(٣) **برمة**: قدر من الحجارة.

فأت خالداً فمره أن يبعث فيأخذها..

فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله أبي بكراً فقل له: إن علي من الدين كذا..

فليقم بسداده» و..

«ما هذا؟».

هتف بها الرجل في حيرة بعد أن انتبه من نومه، وتابع قائلا:

أهو مجرد حلم؟ أم أن الأمر يقتضي إبلاغ خالد بن الوليد ؟!

وبعد تفكير لدقائق، قرر الرجل أن يذهب لخالد بن الوليد ويخبره، والذي استوعب الأمر تماما، وأمر بالفعل بأن يبحث عن الدرع في نفس المكان الذي حدده ثابت في الرؤيا ، ليجد درعه هناك، وكما وصفه ثابت في منام الرجل تماما !!

يا للمفاجأة..

وبالطبع، كان على خالد أن يخبر أمير المؤمنين أبا بكر الصديق بما حدث بعد عودته من المدينة، لينفذ أبو بكر وصية ثابت، ويدفع ما عليه من دين !

وبالرغم من الدهشة التى أعتقد أنها قد أصابت كل قارئ لهذه الرواية المثيرة، إلا أننا لا نملك إلا أن نقول: إنها قصة حقيقية لا شك فيها.

ولن نملك أيضا إلا أن نقول: إن ثابت بن قيس، كان له من المكانة والمنزلة عند قائده خالد وأمير المؤمنين أبي بكر الصديق، ما جعلهما ينفذان وصية رجل بعد وفاته، بسبب رؤية من رجل غيرهما.

ترى هل وصل إلى ثابت بن قيس أن الجميع قد سارع بإنجاز وصيته ؟

ترى هل وصل إلى ثابت بن قيس إلى أي مدى كانت ثقة عظيمين كخالد بن الوليد وأبي بكر الصديق فيه ؟

ولم لا؟

وثابت لم يتأخر يوما في إنجاز وصايا نبيه الحبيب ﷺ، في الدفاع عن الإسلام والتضحية في سبيل الله.

نم يا ثابت واهدأ..

وادع لنا أن نتذكر شيئا من وصايا رسولك ﷺ.

لعلنا ننفذها يوما.

* * *

دروس وتحليل

١ – اهتمام الدولة بمواهب أبنائها يزيد من انتمائهم للوطن، ويجعلهم يقدمون مواهبهم من أجل بنائه وتقدمه (الرسول ﷺ يشجع ثابت بن قيس على موهبته الخطابية ويستغلها في تأسيس الدولة الإسلامية).

كان من أبرز العوامل التى أدت إلى تأسيس دولة إسلامية قوية في المدينة، هو اهتمام الرسول ﷺ بالمواهب وأصحابها ورفعه من شأنهم.

وفي مجتمعاتنا العربية تهان المواهب ويهمل الموهوبون إلى أقصى درجة، إلى الدرجة التى يظنون عندها بأنهم ليسوا أبناء لهذا الوطن، ويضطرون في النهاية إلى استغلال مواهبهم في بلاد أخرى قد تكون غير إسلامية كأمريكا ودول أوروبا، والتي يجد فيها الموهوبون من المسلمين – للأسف – كل اهتمام ورعاية واحترام وتقدير مادي وأدبي.

من أجل هذا وغيره، أصبحت أمريكا هي أمريكا، أوأوروبا هي أوروبا، وأصبح العرب هم العرب.

٢ – الإسلام لا يحرم الثراء، ولكنه يحرم التفاخر والتعالى به؛ لأنه يمزق المجتمع المسلم بالحسد والكراهية (ثابت بن قيس يخشى عدم حب الله له؛ لأنه يلبس نظيف الثياب، والرسول ﷺ يطمئنه).

من القيم التى يدافع عنها الإسلام بقوة تماسك المجتمع المسلم عن طريق الحب والتعاون والرحمة والتكافل، وهو ما جعله يلوم الذين يتفاخرون من الناس بمظاهر ثرائهم، كالبيت الفخم أوالسيارة الفارهة أوالملابس الغالية، وهذا لا يعنى أن الإسلام يحرم هذه المظاهر، ولكنه يحرم فقط استخدامها وسيلة للتعالي على الآخرين، وهوأمر مرجعه النية، ويظهر واضحا بالسلوك والتصرفات، والإسلام يحرم ذلك؛ لأنه يؤدي إلى الحسد والتباغض والكره من الفقراء للأغنياء، مما يؤدي إلى شق الصف المسلم وانتشار الجريمة، ومن ثم ضعف المجتمع وتفككه.

٣– رقة المشاعر لا تعنى عدم الجدية في التعامل والصلابة في الشدائد (كان ثابت بن قيس شاعرا رقيقا ولكنه كان عنيفا في الحرب على الأعداء).

الإسلام دين متوازن ومتكامل، لا يدعو إلى أن يكون المسلم رقيقا ليل نهار فلا يغضب للحق، ولا يكون صلبا قويا في الشدائد وعند لقاء الأعداء، كما أنه لا يطلب من المسلم أن يكون عنيفا على طول الخط ، فلا يعرف اللطف والمزاح والرحمة والحزن والبكاء، إنما الإسلام دين متوازن، يمد المسلم بكل المشاعر، ولكنه يطلب منه أن يوظفها توظيفا صحيحا، فيخرجها في وقتها، وأن يكون قادرا على التحكم في مشاعره بالطريقة المناسبة حسب شدة الموقف وأهميته وخطورته. فالغضب قد تختلف حدته من موقف لآخر، ودرجة الرقة مع الأبناء تختلف عنها مع الأصدقاء عنها مع الغرباء...إلخ.

إن الإسلام دين مشاعر، ولكنها مشاعر مضبوطة بالحكمة والعقل.

٤ - الإسلام يحترم أبناءه المخلصين ويقدرهم (تنفيذ خالد بن الوليد وأبي بكر وصية ثابت بن قيس).

رغم أن وصية ثابت بن قيس جاءت في حلم لأحد الجنود، إلا أنها لاقت اهتماما كبيرا سواء من قائده المباشر خالد بن الوليد، أو من القائد الأعلى أبي بكر الصديق، تقديرا منهما لجندي استشهد في سبيل الله دفاعا عن رفعة دينه، إن خالدا وأبا بكر لم يجبرهما أحد على الاهتمام بوصية ثابت، وكان من الممكن أن يتعللا بأنها مجرد حلم لا يمكن اتخاذه دافعا للتحرك. ولكن الصدق في احترام الجنود والرعية وتقدير الأبناء المخلصين، كان أحد أهم السمات القوية للدولة الإسلامية في مجدها، وعندما أهين المواطن وقسمت البلاد إلى طبقات حسب النفوذ والمال والسلطة، صارت البلاد ضعيفة مفككة منهارة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا وسياسيا.

* * *